

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ
وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 113]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد أن فضحت الآية السابقة، ما يكون بين شياطين الإنس والجن، من الإيحاء المتبادل المتجدد، من زخرف القول وغروره، جاءت هذه الآية متممة للمعنى، وكاشفة عما ستؤول إليه أحوال الذين يُعادون الأنبياء في الدنيا، فقال: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؛ فلآية تناسب مع ما قبلها في كون القرآن تقنع به العقول، وتأنس له القلوب، ولكنها تصغى إلى زخرف القول، فتجعل هؤلاء الكفرة، يتأبسون على الإيمان، ويقترفون الآثام.

فتتناسب هذه الآية مع ما قبلها، إذ إن إصغاء قلوبهم لزخارف الأقاويل، وضلالات الأباطيل، إنما هو نتائج العداوة الظاهرة والباطنة مع كل نبي أرسله الله إليهم، مما يتبادلونه وحيًا خفيًا، ووسوسة غاوية، ولكنها لا تخرج عن المشيئة الإلهية العليا، التي لا يعجزها شيء، ولذلك قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾: من الصَّغَا، والألف منقلبة عن واو؛ لأن المضارع منها يصغُو، فلما جاءت متحركة بعد فتح، قلبت ألفًا في المجرد والمزيد؛ أي: في صَغَى وأصغَى⁽¹⁾، والفعل (صَغَى) و(أصغَى) لازم، لكنه قد يأتي متعديًا بهمزة النقل، وشاهد لازمها:

(1) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/258.

اتَّبَاعُ وَخِي
الشَّيْطَانِ
صَادَّ عَنْ وَخِي
الرَّحْمَنِ، وَمَوْقِعُ
فِي الْعَدَاوَةِ،
وَمُغْرِقٌ فِي
الْعَوَايَةِ

تَرَى السَّفِينَةَ بِهٍ عَنِ كُلِّ مُحْكَمَةٍ *** زَيْغٌ وَفِيهِ إِلَى التَّشْبِيهِ إِصْفَاءٌ⁽¹⁾
وشاهد مُتَعَدِّهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَصَاخَ مِنْ نَبَاةٍ أَصْغَى لَهَا أَذْنَا *** صِمَاخُهَا بِدَخِيسِ الذُّوقِ مَسْتُورٌ⁽²⁾

والإصْفَاءُ: الإِمَالَةُ، وَيَصْغُو فَوْادُهُ إِلَى كَذَا؛ أَي: يَمِيلُ، وَصَغُوكَ إِلَيْهِ؛ أَي: مِيلُكَ، وَصَغَتِ النُّجُومُ: مَالَتْ لِلْغُرُوبِ، وَالشَّمْسُ صَغَوَتْ، إِذَا مَالَتْ فِي الْغَرْبِ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْلَتْهُ فَقَدْ أَصْغَيْتَهُ، وَصَغَيْتُ إِلَى الشَّيْءِ أَصْغَى صَغِيًّا إِذَا مِلْتُ، وَصَغُوتُ أَصْغُو صَغَوًا، وَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ: اسْتَمَعْتُ، وَصَاغِيَةَ الرَّجُلِ: الَّذِي يَمِيلُونَ إِلَيْهِ وَيَأْتُونَهُ وَيَطْلُبُونَ مَا عِنْدَهُ وَيَغْشَوْنَهُ.

ومن معاني (تَصَغَى) الميلُ إلى جهةٍ تكونُ هي محورَ الاهتمام، أو الاستماعُ بعنايةٍ لجهة الصوت، أو الاشتغالُ بمن يهْمُنَا أمرُهُم، كما تعني الهوى مع الغير⁽³⁾.

(2) ﴿أَفْعِدَّةٌ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (فَاد)؛ والفَوَادُ كالقَلْبِ، ولكن يُقالُ له فَوَادٌ إِذَا اعتُبرَ فيه معنى التَّفَوُّدِ؛ أَي: التَّوَقُّدُ؛ والخَشْبَةُ الَّتِي يُحَرِّكُ بِهَا التَّنُورُ مِفَادٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ ۖ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ﴾ [الْهُمَزَةُ: 6-7]. وتخصيصُ الأفْعِدَةِ تنبيهٌ على فِرطِ تأثيرِ له⁽⁴⁾.

وورودُ لفظِ الأفْعِدَةِ في الآيةِ ارتباطٌ مهمٌّ بالتَّفَوُّدِ؛ أَي: التَّوَقُّدِ، والطَّاقَةُ الْكَبِيرَةُ فِي الرِّغْبَةِ لِلْإِصْفَاءِ، وَالْمِيلُ إِلَى ذَلِكَ الْإِيحَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

(3) ﴿وَلَيَقْتَرِفُونَا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَرَف)؛ الْفَعْلُ اقْتَرَفَ؛ أَي: اكْتَسَبَ، واقْتَرَفَ ذَنْبًا؛ أَي: أَتَاهُ وَفَعَلَهُ، وَقَرَفَهُ بِكَذَا؛ أَي: أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَاتَّهَمَهُ بِهِ، وَقَرَفَ الشَّيْءَ: خَلَطَهُ، وَالْمُقَارَفَةُ وَالْقَرَافُ: الْمُخَالَطَةُ، وَالْأَسْمُ الْقَرَفُ. وَقَارَفَ فَلَانٌ الْخَطِيئَةَ؛ أَي: خَالَطَهَا، وَ(قَارَفَ) الشَّيْءَ قَارَبَهُ وَخَالَطَهُ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ (قَرَفَ) فِي الشَّرِّ وَالذُّنُوبِ، وَلَا تَكُونُ الْمُقَارَفَةُ إِلَّا فِي الْأَشْيَاءِ الدَّنِيَّةِ⁽⁵⁾.

(1) الشَّاهِدُ غَيْرُ مَنْسُوبٍ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ، ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ: 488/5 - 489، وَالْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ: 7/46، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 4/620، وَالسَّمِينُ، الذَّرُّ لِلصُّونِ: 5/120، وَالشَّهْرِيُّ، الشَّاهِدُ الشَّعْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 125، وَالْهَرَبِيُّ، تَفْسِيرُ حَدَائِقِ الرُّوحِ وَالزِّيْحَانِ: 9/38.

(2) الْبَيْتُ لِلتَّابِعَةِ، دِيوَانُ التَّابِعَةِ الذَّبْيَانِيِّ، ص: 157، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 4/620، وَالْهَرَبِيُّ، تَفْسِيرُ حَدَائِقِ الرُّوحِ وَالزِّيْحَانِ: 9/38.

(3) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، وَابْنُ دَرِيدٍ، جُمَهْرَةُ اللَّغَةِ، وَالْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (صَغَا).

(4) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، وَالزَّائِغُ، لِلْفِرْدَاتِ: (فَاد).

(5) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، وَمَجْمُوعَةُ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ، الْعَجْمُ الْوَسِيطُ: (قَرَفَ)، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 4/207.

ونستخلص من معاني لفظ (يَقْتَرِفُ) الاكتساب والاقتناء، وإتيان الشيء المكروه وفعله، والدنوّ من الآثام، والتلبّس بها وارتكابها، ومن معانيه: التُّهْمَةُ والبَغْيُ، ومن معانيه: اكتسابُ المرض نتيجة عدوى؛ لأنَّ مَنْ يميلُ إلى مريض، قد يكتسبُ عدوى منه.

❁ المعنى الإجمالي:

مَنْ يَهْمِلُ مِنْهَجَ
الْحَقِّ يَقَعُ
فِي مُسْتَنْقِعِ
الْقَنَاعَةِ بِالْبَاطِلِ
والتَّجْدِيفِ
بِالتَّمْويهَاتِ

يُخْبِرُ تعالى أَنَّ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ تَمِيلُ إِلَى ذَلِكَ الزُّخْرَفِ الْمُغْرِي، وَالْغُرُورِ السَّاحِرِ الْأَخَازِ، مِنَ الْأَقَاوِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ، وَتَتَقَبَّلُهُ وَتَرْضَى بِهِ؛ لِتَقْتَرِفَ الذُّنُوبَ الْمُهْلِكَةَ، وَالْآثَامَ الْمُفْسِدَةَ، غَيْرَ مُكْتَرِثَةٍ بِعِقَابٍ يَتَرَقَّبُهَا، وَلَا حِسَابٍ يَنْتَظَرُهَا، وَقَدْ نُسِبَ الْإِصْغَاءُ إِلَى الْأَفْتِدَةِ؛ لِأَنَّهَا جَوْهَرُ الْإِنْسَانِ، وَعِمَادُ حَيَاتِهِ، وَمَصْدَرُ الْإِحْسَاسِ وَالتَّفَاعُلِ وَالتَّأَثُّرِ، فَهِيَ تَسْتَمِعُ إِلَى ذَلِكَ، وَتَمِيلُ إِلَى زِينَتِهِ وَغُرُورِهِ⁽¹⁾، فَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ؛ تَغْرِيرًا بِهِمْ، وَتَوْخِيًّا لِمَلِكَلَانِ هَذِهِ الْأَفْتِدَةِ، مِنْ طَرَفِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ لِمُؤَازَرَتِهِ لَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ، وَلِيَرْضَوْهُ لَأَنْفُسِهِمْ، بَعْدَ مَا مَالَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ، وَلِيَكْتَسِبُوا بِمُوجِبِ ارْتِضَائِهِمْ لَهُ، مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ مِنَ الْآثَامِ⁽²⁾، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُمْ لِحَيَاتِهِمْ، فَيَتَلَقَّوْنَهُ وَيَرْضَوْنَهُ، وَيَقْتَرِفُونَ مَا تَأْمُرُهُمْ بِهِ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَيَاطِينُهُمْ.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَتَصْغَى﴾:

أَوَّلُ خُطُواتِ
الْمِيلِ إِلَى الْبَاطِلِ
الاسْتِمَاعُ لَهُ

أَفَادَتِ الواوُ معنى العطف، فقوله تعالى: ﴿وَلَتَصْغَى﴾ معطوفٌ على ﴿غُرُورًا﴾؛ لِأَنَّ ﴿غُرُورًا﴾ فِي معنى لِيَغُرُّوهُمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لِيَغُرُّوهُمْ وَلَتَصْغَى، فَعُطِفَ الْمِيلُ إِلَى الْغُرُورِ عَلَى الْغُرُورِ.

(1) السَّمْرِقَنْدِيُّ، بحر العلوم: 1/476.

(2) الْقَاسِمِيُّ، محاسن التأويل: 4/471.

نوع اللَّام ومعناها في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى﴾:

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ لامٌ (كَي)، فيها ثلاثة أوجه: الأول: لامٌ (كَي)، وهي تفيّد التعليل والتوكيد، والثاني: لامٌ الصيرورة، وهي لامٌ العاقبة كما عند الزمخشري، والثالث: لامٌ القسم، وقد عَقِبَ السّمينُ الحلبِيّ على قائلِ هذا القول، فقال: "وما قاله غيرُ معروف؛ بل المعروف أنّها لامٌ (كَي)، وهي جوابُ قسمٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: (وَاللّٰهُ لَتَصْغَى)، فوضع ﴿وَلِتَصْغَى﴾ مَوْضِعَ (وَلِتَصْغَى)، فصار جوابُ القسم من قبيل المفرد، كقولك: (واللّٰهُ لَيَقُومُ زَيْدٌ)⁽¹⁾، والتقدير: (أَقْسِمُ بِاللّٰهِ لَقِيَامُ زَيْدٍ)، كقول الشاعر:

إِذَا قُلْتُ قَدْنِي قَالَ بِاللّٰهِ حَلْفَةً *** لَتُغْنِي عَنِّي ذَا إِنَّاكَ أَجْمَعًا⁽²⁾.

وقد وردت لامٌ التعليل في ثلاثة مواضع من هذه الآية هي: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ ﴿وَلَيَرْضَوْهُ﴾ ﴿وَلَيَقْتَرِفُوهُ﴾، وهي في الأصل من اللّامات الجارّة عملاً، فما بعدها يُؤوّل بمصدرٍ مجرورٍ باللّام، وهي من جهة المعنى، تفيّد إلى جانب التعليل الصيرورة والعاقبة، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري⁽³⁾.

سرّ التعبير بمفردة ﴿وَلِتَصْغَى﴾:

عبر النظم بلفظ ﴿وَلِتَصْغَى﴾ دون أن يقول: (ولتميل)؛ وذلك لما في الإصغاء من معنى الميل، ومعنى الاهتمام والعناية بالشّيء المُمالٍ إليه، بحيث يُصْبِحُ المُصْغِي مُعْطِيًا كاملَ اهتمامه للمُصْغَى إليه، فالميلُ إلى الشّيء واستحبابه، هو أوّلُ معاني الإصغاء، فلولا الميل

جمعت اللَّامُ
معنى التَّعليلِ
والتَّوكيدِ وبيانِ
المآلِ

الإصغاء
ناتجٌ عن ميلٍ
داخليٍّ إلى تلك
الإحساءات
الشَّيطانيّة

(1) السّمين الدّرّ للصون: 5/118.

(2) البيت لحريث بن عتاب الطائي، وجاء عند ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 278 قوله: "والجماعة يأبون هذا، ولأنّ القسم إنّما يُجاب بالجملة، ويروون لتغنى بفتح اللّام ونون التوكيد، وذلك على لغة قزارة في حذف آخر الفعل لأجل التّون، إن كان ياء تلي كسرة ... وقدروا الجواب محذوفاً، واللّام متعلّقة به، أي: ليكوننّ كذا ليرضوكم ولتشرينّ لتغني عني"، يُنظر: الزمخشري، الكشف:

3/616، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/626، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/12.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/389.

والاستحبابُ القلبِيُّ، ما نتج الإصغاءُ الحسِّيُّ، فإذا مال الفؤادُ إلى ما تُزَيِّنُهُ شياطينُ الإنسِ والجنِّ لأوليائِها وقع الإصغاءُ والاستماعُ إليه بعنايةٍ واهتمامٍ ورضى، كقول الشاعر⁽¹⁾:

تَرَى السَّفِيهَ بِهِ عَنْ كُلِّ مُحْكَمَةٍ *** زَيْغٌ وَفِيهِ إِلَى التَّشْبِيهِ إِصْغَاءٌ⁽²⁾
فالإصغاءُ له حضورٌ نفسيٌّ داخليٌّ، ومظهرٌ خارجيٌّ تذللِيٌّ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَى﴾:

الإصغاءُ مستمرٌّ
بتجدُّدِ الإحياءِ
الشَّيْطَانِيِّ

المُتَدَبِّرُ لقوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ يجدُّ مساحاتٍ من معاني الامتزاجِ المركَّبةِ بين الَّذِينَ يَفْتَرُونَ وَالَّذِينَ يَصْغُونَ، لا يفصلُ بينهم إلَّا لحظاتُ أنفاسٍ وقفَةٍ التَّلَاوَةِ، وجاءَ التَّعْبِيرُ بالإصغاءِ لبيانِ أَنَّ تلكَ الإحياءاتِ الشَّيْطَانِيَّةَ تَمُدُّ الْمُفْتَرِيَّ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، وهو على جميعِ أحواله تصغى جوارحه وقلبه وعقله ومشاعره وأحاسيسه إلى تلكَ الإحياءاتِ الَّتِي تُوَجِّهُ حَيَاتَهُ وسلوكيَّاته.

دَلَالَةُ تَرْتِيبِ الْأَفْعَالِ: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا﴾:

فَنُ التَّرَقِّي فِي
الْبَاطِلِ يَبْدَأُ
بِالْمِيلِ فَالرِّضَا
فَالْاِقْتِرَافُ

ابتدأتِ الآيَةُ بالإصغاءِ، وتضمَّنتِ مجموعةً من المعاني على الحقيقةِ والمجازِ، وهي تَصَبُّ في الانسلاكَ في سُلَّمِ الصُّعُودِ، باقتِرافِ جُمْلَةٍ من الأعمالِ المُتَوَالِيَةِ المُتَصَاعِدَةِ في مقياسِ الإثمِ والظُّلْمِ والعُدوانِ؛ فكانتِ البدايةُ في الإصغاءِ، ثُمَّ عطفَ على الإصغاءِ (وليرضوه)؛ ليكونَ الرِّضَا هو الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ على سُلَّمِ التَّرَقِّي، ثمَ النَّتِيجَةُ الفُعْلِيَّةُ الصَّرُورِيَّةُ وهي الاقتِرافُ.

(1) لم يُعرفْ قائله، ونُسبَ للإمامِ الشَّافِعِيِّ، والبيتُ ينتقدُ الجهلاءَ الَّذِينَ يَحْرِفُونَ معاني القرآنِ والسَّنَةَ بالتَّأْوِيلَاتِ الباطِلَةِ، وَالشَّبهَاتِ المُضِلَّةِ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 504/9.

(2) الشَّاهِدُ غَيْرُ مَنْسُوبٍ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ، ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ: 488 - 489، وَالْقُرْطَبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ: 7/46، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 4/620، وَالسَّمِينُ، الذَّرْ لُصُونِ: 5/120، وَالشَّهْرَبَرِيُّ، الشَّاهِدُ الشَّعْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 125، وَالْهَرَبِيُّ، تَفْسِيرُ حَدَائِقِ الزَّوْجِ وَالزَّيْحَانِ: 9/38.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يظهر تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيْهِ﴾ على الفاعل ﴿أَفْئِدَةُ﴾، وغايته بيان الاهتمام بذلك القول، وإبراز مدى ميلهم تجاهه، وكأن فيه طاقةً جاذبةً نحوه، تجعل الأفئدة تميلُ إليه، والعبارة تصوّر مشهدَ الاهتمام والإنصات والإصغاء إلى ما تُوحيه شياطينهم من الإنس والجنّ، ونستجلي من معنى الإصغاء، ميل تلك الأفئدة إلى صنوفٍ من القول الكاذب، والافتراء الأثيم؛ لكونها بيئةً خصبةً لتمكين تلك الإيحاءات في نفوسهم، والتّقديم يُشيرُ إلى اختصاصِ ميلهم عند الإصغاء بما تُوحيه تلك الشّياطين من أقوالٍ وافتراءاتٍ.

الاهتمام
والعناية بما
تُلقيه الشّياطينُ
من الافتراءات

تعيين مَرَجِعِ ضَمِيرِ ﴿إِلَيْهِ﴾:

يرجع الضميرُ في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى إيحاء شياطين الإنس والجنّ من زُخرفِ القول، فإيحاء الشّياطين هو إيحاءٌ تغرير وإغواء وتلبيس، فإذا التقى معه إصغاءٌ قلبيّ اكتملت الدائرة، وتحققت الطّامة.

الإصغاء يكون
إلى إيحاء زخرفِ
القول أمّا في
تحقيقه

نُكْتَةُ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾:

وردَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ بأسلوبِ الإِضْمَارِ، فلم يقل: (ولتصغى إلى ما يوسوسُ به بعضهم لبعض)، والوجهُ في هذا التّعبير أنّه وردَ على سبيل التّبْخِيسِ والتّحقيرِ للقول المزخرف، فلا يستحقُّ إبرازه وذكره في الآية، أو أنّ الإِضْمَارَ هو للتّوكيدِ والإشارةِ إلى أنّ القولَ المزخرفَ هو ما يُوحيه الشّياطينُ إلى أعوانهم من الإنس والجنّ، فلا يحتاجُ إلى تكراره في الآية لوضوحه من سياق الآيات.

التّبْخِيسُ
والتّحقيرُ للقول
المزخرفِ فلا
قيمةَ لذكره

سُرُّ إِسْنَادِ الإِصْغَاءِ إِلَى ﴿أَفْئِدَةُ﴾ لَا إِلَى ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

إِسْنَادُ الإِصْغَاءِ إِلَى الأفئدة استعارة؛ إذ شبه الأفئدة بفريقٍ من النّاس جمعوا سمعهم للإصغاء، فهمًا ووعيًا لما يُوحى إليهم، وهي

الأفئدة موضعُ
جذوة الضمير
في الإنسان

استعارة مَكْنِيَّةٌ تشخيصيَّةٌ، حيثُ حُذِفَ المشبَّه به وصُرِّحَ بالمشبَّه، وهو لفظُ الأفتدة؛ لبيان قُرْبِها وامتزاجِها بالوحي الموحى إليها، والعبارة في عمومها مجازٌ في الاتِّباع وقَبُولِ القول⁽¹⁾.

غرض التعبير بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جمعًا:

وعبر بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ وهي لجماعة الذكور العقلاء؛ ومفردُه (الَّذِي) يكون للعاقل وغيره⁽²⁾، وفائدة التعريف بالاسم الموصول إبهامٌ ذوات المنكرين على الرسالة والرسول، فوصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، ممَّا يدلُّ على خِسَّتِهِمْ ودناءَتِهِمْ وتعلُّقِهِمْ بالحياة الدُّنيا وزينَتِها.

فائدة التعبير بنفي الإيمان لا إثبات الكفر:

قال سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولم يقل: (الَّذِينَ كَفَرُوا) أو (الَّذِينَ نَافَقُوا)، أو غير ذلك من الأوصاف، فجعل عدم الإيمان هو عنوانهم، ذلك أنَّه مطلوبٌ منهم أن يؤمنوا، فلمَّا زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ، وصَفَتْ لِإِيحَاءِ الشَّيَاطِينِ، ذُكِرُوا بِالْإِيمَانِ الْمُنْفِيِّ بِالْكَفْرِ، وَالنَّفْيِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فِي قَابِلِ الْآيَامِ.

فائدة ذكر قيد ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ والاقتصار عليه:

لم يقل: لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وإنما جمعهم في صفة عدم الإيمان بالآخرة، وفائدة ذلك أنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَدُلُّونَ بِأَفْعَالِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ أَوْ الْاِكْتِرَافِ إِلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسْلُ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنْهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَسَابِ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ، وَالْجَزَاءُ عَلَى مَا يَفْعَلُ، وَالْمَعْنَى مُمْتَدُّ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ الْإِصْغَاءَ إِلَى وَحْيِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عِلَامَةً فَارِقَةً لِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، كَمَا جَعَلَ عَدَمَ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ الْمَحْوَرَّ

مُنَكِّرُوا الرِّسَالَةَ
وَالرَّسُولَ لَا
يَسْتَحَقُّونَ الذِّكْرَ
وَلَا الشُّكْرَ

عَدَمُ الْإِيمَانِ
بِالْآخِرَةِ هُوَ
الْجَامِعُ
لَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ إِصْغَاءً
وَرَضًا وَاقْتِرَافًا

الْآخِرَةُ هِيَ
مَحَطُّ الْأَعْمَالِ،
وَمَقَرُّ الْحَسَابِ،
وَأَصْلُ الْمَعَايِيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/12.

(2) الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: 1/150.

الجامع للمُصنفين لتلك الإحياءات، وما أكثر أمثلة هذا الإصغاء في مجتمعاتنا اليوم! فقد تُؤدّي وسائل الإعلام مثلاً دور الإيحاء والعداوة لدين الله، وإضلال الناس والكُفر بالله، وغير ذلك من تزيين القول وزخرفته، ويُؤدّي عمومُ الناس دور الإصغاء، فمن كان مُؤمناً بالآخرة فلن يرضى ما فيه من عداوة الدين، وفُحش القول، وضلال الفكر، وأمّا الذين لا يُؤمنون بالآخرة فسوف يرضونه، ويقتربون ما هم مُقتربون.

وعلى العموم فإنّ الاستعمال القرآني للفظ (الآخرة) لم يأتِ مقترباً مع لفظ الجلالة (الله)، بينما نجد اليوم الآخر في غالبه جاء مقترباً به.

فائدة استعمال الواو بدل الفاء وفائدة تكرار اللام:

عطف النظم ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَى﴾، ولما كان الصغي يقتضي الرضا، فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء، وأن لا تُكرّر لام التعليل، فحولف مقتضى الظاهر؛ للدلالة على استقلاله بالتعليل، فعُطف بالواو، وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال، فيدل على أنّ صغي أفئدتهم إليه، ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رضوه⁽¹⁾، وقيل: إنّ لام ﴿وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا﴾ هي لام الأمر، وهو حرف يتضمّن التهديد والوعيد، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

ثمّ عطف ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ على ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ كعطف ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَى﴾⁽²⁾، فيكون الاقتراف هو الدرجة الأعلى التي تحققت بها أهداف الشياطين كاملة، في إيقاع الناس في الضلال والباطل، وجعلهم يستمرّون المنكر، ويميلون إليه كلّ الميل، حتّى يصير أهلُه مثل أهلهم، ويستمدّون منه المتاع، ويرتحلون معه

قيام المعطوفات
مقام العلي
المستقلة
الدافعة للعمل
القلبي والبدني

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/12.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/12.

أَيْنَمَا رَحَلَ، وَيَحُلُّونَ بِهِ أَيْنَمَا حَلَّ، وهكذا فَإِنَّ تَرْتِيبَ المَفَاعِيلِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ فِي غَايَةِ الفَصَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مَا يَقَعُ مِنْ (الخِدَاعِ) أَوَّلًا، فَيَكُونُ (المَيْلُ)، فَيَكُونُ (الرِّضَا)، فَيَكُونُ (الفِعْلُ)، فَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مُسَبَّبٌ عَمَّا قَبْلَهُ⁽¹⁾، وَلَعَلَّهُ كُلُّهُ نَاشِئٌ عَنِ مَنْظُومَةِ الإِصْغَاءِ، أَوْ هُوَ مُنْسَجَمٌ مَعَهَا عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالة استعمالها:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (ما) موصولةٌ، والمعنى: الَّذِي هُمْ مُقْتَرِفُونَ مِنَ الْآثَامِ وَالْعُدَاوَةِ؛ لِتَدُلَّ عَلَى صِفَاتِهِمُ الَّتِي يَتَّصِفُونَ بِهَا، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يُصَرِّحُونَ عَلَيْهَا، وَهِيَ تَفِيدُ التَّبْشِيعَ وَالتَّشْنِيعَ لِمَا يَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَوُا﴾ [طه: 78]⁽²⁾، وَالْأَسْلُوبُ مُبْهِمٌ؛ لِإِفَادَةِ التَّشْنِيعِ لِمَا يَعْمَلُونَ⁽³⁾.

نكتة التعبير بالجملة الاسمية: ﴿هُم مُقْتَرِفُونَ﴾:

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، فَقَدْ اتَّصَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ بِاقْتِرَافِهِمْ لِلْآثَامِ، فَلَمْ يَقُلْ: "وَلِيَقْتَرِفُوا الْآثَامَ"؛ بَلْ قَالَ: ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْتَرِفُوا شَيْئًا خَارِجَ طِبَاعِهِمُ الَّتِي أَنْكَرَتِ الْإِيمَانَ، فَهَمْ سَيَقْتَرِفُونَ الْآثَامَ لَا مُحَالَةً؛ إِذْ أَصْبَحَتْ جِزْءًا مِنْ حَيَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى تَمَكُّنِهِمْ فِي ذَلِكَ الْاِقْتِرَافِ، وَثَبَاتِهِمْ فِيهِ⁽⁴⁾، فَتَكُونُ أَعْمَالُهُمْ مُمْتَزِجَةً بِالْمُنْكَرَاتِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْانْجِرَافَاتِ.

سر استعمال مُفْرَدَةِ ﴿مُقْتَرِفُونَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهَا:

وَرَدَ لَفْظُ الْاِقْتِرَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَيْضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 120]،

(1) أَبُو حَتَّىان، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 4/211.

(2) أَبُو حَتَّىان، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 4/211، وَالسَّمَرْقَنْدِيُّ، بَحْرُ الْعُلُومِ: 1/476.

(3) الْهَرَبِيُّ، حَدَائِقُ الرُّوحِ وَالزَّيْحَانِ: 4/211.

(4) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 8/13.

تبشيع اقتراف
الأباطيل
والضلالات
والانجرافات
حاضر في النظم
الكريم

اقتراف السيئات
وكسب الإثم
أصيل في القلوب
المائلة للباطل

الاقتراف يختص
بالآثام الخفية
كالإصغاء
والرضا الداخلي
والنفساني

فذكرَ الكسبَ والافتراءَ معاً، وفائدة ذلك أنَّ الافتراءَ يكون في الآثام الخفية، مثل الإصغاء والرضا الداخلي والنَّفسي، أمَّا الكسبُ فيكونُ في الشيء الذي هو مطلبٌ علنيٌّ لا خفاءَ فيه، فيتحوَّلُ الإثمُ الخفيُّ إلى مطلبٍ علنيٍّ فيكسبون الإثمَ دون تورُّع.

جناسُ الاشتقاق بين الكلمتين ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا﴾ و﴿مُقْتَرِفُونَ﴾:

بين الكلمتين ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا﴾ و﴿مُقْتَرِفُونَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ، فتجانَسَ اللفظُ والمعنى اشتقاقاً، فيكونُ اقترافُهُم مُشتقاً من طبيعة ما اقترفته شياطينُهُم، ويكونُ لكلِّ منهم حصَّةٌ في اقتراف السيِّئاتِ والعداوةِ والآثامِ.

❁ الفروقُ المُعْجِيةُ:

الإصغاءُ والليلُ:

الصَّغْوُ في اللغة معناه: الميلُ، والعربُ تقول: أصغَتِ النَّاقَةُ، وذلك إذا أمالت رأسها إلى الرجلِ كأنَّها تستمعُ شيئاً، فالإصغاءُ: هو إطراقُ السَّمْعِ للمتكلِّم مع ميل القلبِ لما يقول، وأن تُعطِي أذنَكَ مَنْ يَهْمَكَ كلامُهُ، فهذا هو الإصغاءُ، وعليه فالإصغاءُ تسمُّعٌ وليس سَمْعاً، فالسَّمْعُ ليس للإنسان اختيارٌ فيه؛ أمَّا التَّسْمُّعُ الَّذِي هو الإصغاءُ فيسعى إليه السَّامِعُ باختياره ويطلبُه.

وأما الميلُ فإنَّه عامٌّ في كُلِّ شيءٍ، وهو العُدُولُ عن الوسطِ إلى أحدِ الجانبين، ويُستعملُ في الجورِ وضدِّه، ويُقال: ملتُ إلى فلانٍ إذا عاونته، قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: 129]، وملتُ عليه؛ أي: تحاملتُ عليه، وقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾

[النساء: 102]

لذلك ناسبَ اللَّفْظَةُ موضعها في سياق الآية الكريمة؛ دلالةً على طلب التَّسْمُّعِ مِنَ الْقُلُوبِ الْفَارِغَةِ مِنَ الْإِيمَانِ لِلْكَلامِ الْمُرْتَبِّ الْبَاطِلِ.

اقتراءُ الآثامِ
الخفيةِ مُتبادِلٌ
بين شياطينِ
الإنسِ والجنِّ
ومَنْ تابعهم

الإصغاءُ يكونُ
في السَّمْعِ
خاصَّةً، والليلُ
يكونُ عامًّا في
جميعِ الأشياءِ

الفؤاد والقلب:

الفؤاد للوجدان
والعواطف،
والقلب للإيمان
والعقائد

وردَ في سورة القصص ما يدلُّ على التَّمييز بين القلب والفؤاد في استعمال القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [القصص: 10]؛ فالفؤاد مسؤولٌ عما توقَّدَ من المشاعرِ والوجدانِ والعواطف، وأمَّا القلبُ فينتظمُ مع العقلِ في منظومةِ التفكير قال تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46].

والفؤادُ مشتقٌّ من الفؤادِ الذي يعني الشَّواءَ، فيقولون: فأد اللحمُ في النار؛ أي: شواه، ووردَ الفؤادُ في القرآن الكريم مُسْتَنَدًا إلى السَّمعِ والبصر؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [النحل: 78]؛ ليعبرَ عن منظومة التحليل والاعتقاد، فكلمة (الفؤاد) تُطلقُ على إنضاج الشيء؛ فذكرَ الفؤادَ الذي يختصُّ بالتحليل وإنضاج الفكرة، ممَّا يكسبُ الإنسانُ من العلوم بطريق السَّمعِ والبصر، فإن عرَضَت فكرةٌ على الإنسان تلقَّاهَا الفؤادُ، فيتعاملُ معها قبولًا ورضًا، أو ردًّا وإنكارًا، حتَّى إذا اقتنعَ الإنسانُ بها دخلت إلى القلب، واستقرَّت، فصارت عقيدةً راسخةً، فناسب ورودُ اللَّفظةِ في سياق الآيةِ الكريمة.

الاقتراف والاكْتِسَاب:

الاقتراف للاْتِمَامِ
الخَفِيَّةِ،
والاكْتِسَابِ
للاْتِمَامِ الظَّاهِرَةِ
والمُعْلَنَةِ

وردَ الاقترافُ والكسبُ في آيةٍ واحدةٍ من السُّورة نفسها؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ۝﴾ [الأنعام: 120]، وكلمة (يقترفون) في هذه الآية امتدادٌ طبيعيٌّ لها، فإصغاءُ الأفئدةِ إثمٌ داخليٌّ خفيٌّ، والرضا النَّفْسِيُّ إثمٌ داخليٌّ خفيٌّ كذلك، ويأتي الاقترافُ متناسبًا ومُنسَجَمًا مع هذه

الآثام الخفية، وبواطن الآثام التي تؤسس لمرحلة الكسب، فجاءت في الآية اللاحقة قوله:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ مقترنة بالكسب.
والكسب والافتراء متناسبان؛ فالكسب وليد الافتراء؛ إذ إن كسب الإثم هو نتيجة لما
اقترفه الآثمون من الآثام الخفية التي ارتضتها نفوسهم، وصغت إليها أفئدتهم.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 11، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-63-7

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 11: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-798-63-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»